النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الخامس

في الامثال العربية المنقولة عن الاسفار المقدسة

يعرف القرّاء ما كان للامثال الدارجة من الشهرة والاعتبار بين عرب الجاهلية فانهم اودعوها اخبارهم وضمّنوها حكمهم وكانوا يحتجّون بها صدور عاداتهم ويُدرجونها في خطبهم وينظمونها في اسلاك قصائدهم وينقلونها في انحاء جزيرتهم حتى ضُرب المثل في سيرها فقالوا: أسيَر من مثل. وانما فضّلوها لاربع فوائد وجدوها فيها كما قال احدهم: اجتمع في المثل اربعة لا تجتمع في غيره من الكلام ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية. وهذه الخواصّ تنطبق كلها مع غرائز العرب واطباعهم اذ عُرفوا بالرزانة والتروّي في الكلام وايراد الحكم البالغة باللفظ الوجيز. وقد اشار صاحب سفر الملوك الثالث الى حكمة العرب هذه عند كلامه عن حكمة سُليمان وقد سلّمهم هناك باصل الشرق فقال (٤: ٣٠) : « ففاقت حكمة سليمان حكمة جميع اهل الشرق » ثمّ ذكر بعض العرب المشهورين بذلك

ولمّا ظهر الاسلام واخذ اللغويّون يجولون في احياء العرب ليجمعوا شعرهم ومآثرهم الادبيّة جعلوا لامثالهم شأناً عظيماً. وكان اوّل من اخذ بجمعها عبيد بن شريّة وصحار العبدي كانا في عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان ولكليهما كتاب في الامثال واشتهر بعدهما المفضّل الضبّي في اوائل الدولة العبّاسيّة وقد طُبعت امثاله في الاستانة ثمّ تبعهُ ابو عبيد القاسم بن سلام ولهُ كتاب الامثال السائرة ثمّ الاصمعي وابو زيد وابو عبيدة النحوي ثمّ هشام الكلبي صاحب كتاب امثال حِمير ثم ابن الاعرابي ولهُ تفسير الامثال وابن قتيبة مؤلف حكم الامثال ثم العسكري مؤلف

جهرة الامثال حتى قام الميداني شهاب الدين احمد النيسابوري († ٥٣٩هـ=١١٤٥ م) فوضع كتابهُ مجمع الامثال وضمّنهُ نيفاً وستّة الاف مثل جمعها من اكثر من خمسين كتاباً ورتّبها على حروف المعجم (ونحن نشير في كلامنا الى طبعة بولاق سنة ١٢٨٩)

وقد راجعنا ما تيسّر لنا من هذه المجاميع لعلّنا نقف على اصول تلك الامثال فوجدنا عدداً منها نُقل بلفظهِ او بمعناهُ عن اسفار العهدين القديم والحديث ما يدلّ على انّ قائليها عرفوا كتب النصارى المنزلة وخالطوا النصارى ولعلّ قوماً منهم كانوا نصارى فلم يصعب عليهم ان يضربوا الامثال نقلاً عن كتب كانوا يسمونها في مجتمعاتهم الدينيّة

وها نحن نورد هنا هذه الامثال اثباتاً لقولنا ونشير الى الآيات الكتابيّة المأخوذة عنها. ولم ننقل غير الامثال الراقية الى عهد الجاهليّة او اوائل الاسلام ما يدلّ على هذا النفوذ النصراني بين العرب ونقسم هذا الفصل اربعة اقسام

١ انّ بين الامثال العربيّة قسماً كبيرًا ورد على صورة أفضل التفضيل ذكرهُ الميداني في آخر كل باب من حروف المعجم. وهذه الامثال مبنيّة على ما خُصّت بهِ المواليد الطبيعيّة من الصفات اللازمة لها كنور الشمس وحلاوة العسل وشجاعة الاسد. فهذه الامثال التي نُقلت عن العرب ليست خاصّة بهم وقد سبقهم الى استعمالها اصحاب الاسفار المنزلة في العهدين القديم والحديث سواء قيل انّ العرب استعاروها من تلك الاسفار او انّهم اوردوها بمجرّد نظرهم الى الطبيعة

فمنها امثال مبنيّة على الطبيعة الجامدة كالفلك وظواهر الجوّ والمعادن نذكر هنا ما عثرنا عليهِ من ذلك. يقول العرب: احسن من الشمس والقمر (الميداني ١: ٢٠١) وابهى من القمرين (م ١: ١٠١) واشهر من البدر (م ١: ٣٤٣) واثقب من النجوم وارفع من السماء (م ١: ٢٧٨) وأبيَن من فلق الصبح (م ١: ١٠٣) وأنور من وضح النهار (م ٢: ٢٦٢) فهذه الامثال قد سبق اليها كلّها الكتاب الكريم مثال ذلك قول سفر الحكمة (٧: ٢٩) عن الحكمة: «انّها ابهى من الشمس واسمى من كل مركز للنجوم واذا قيست بالنور تقدّمت عليهِ» وكقول ابن سيراخ (١٧: ٣٠): «اي شيء اضوأ من الشمس» وكقول سفر الاناشيد (٦: ٩): «من هذه المُشرفة كالصُبح الجميلة كالقمر المختارة كالشمس»

ويقول العرب آكلُ من النار (م ١ : ٧٤) وقال لشعيا النبيّ قبلهم (٣٠ : ٢٧) : « هوذا اسم الربُ يأتي من بعيد . . . وشفتاهُ مملوّتان سخطاً ولسانهُ كنار آكلة » . وضربوا المثل في سرعة البرق (م ١ : ٣١٥) وقال الربُّ قبلاً في الانجيل عن سقوط ابليس من السماء (لوقا ١٠ : ١٨) : « اني رأيتُ الشيطان ساقطاً من السماء كالبرق »

ومن امثالهم في الحسن : « احسن من الدُّمية » (م ١ : ٢٠٠) وكان داود قال في مزاميره (١٤٣ : ١٢) : « انَّ بَناتنا كاعمدة الزوايا مزيّنات كدُمية هيكل »

وقد ضربوا المثل بصلابة الصخر فقالوا : « أقسى من صخرة ومن حجر » (م ١ : ٦٢) وايبس من صخر (م ٢ : ٣٢٢ وارسب من حجارة (١ : ٢٧٨) ومثلهُ في اشعيا (٥٠ : ٧) عن ثبات المسيح بازاء اعدائهِ : « السيد الرب ينصرني لذلك لم اخجل بل جعلتُ وجهي كالصوّان » وقال موسى في تثنية الاشتراع (٨ : ١٣) لبني اسرائيل عن الرب : « انهُ اخرج لك الماء من صخرة الصوّان » وقد اشار السيد المسيح الى ثبات بيعتهِ لمّا دعا رسولهُ بطرس القامة بالصخرة وأكّد لهُ انهُ « يبني بيعتهُ على تلك الصخرة فلا تقوى عليها ابواب الجحيم » (متّى ١٦ : ١٨) . ويشبههُ مثل العرب في ثقل الرصاص فقالوا : اثقل من الرصاص (م ١ : ١٣٨) وارسى من الرصاص (م ١ : ٢٧٨) وقد شبّه موسى قبلهم غرق المصريين في البحر بالرصاص (خروج ١٥ : ٥ و ١٠) : « غطّتهم اللُّجج فهبطوا في الاعماق كالحجارة . . . وغرقوا كالرصاص في عمر المياه » وكذلك قولهم : « اثقل من طَود » (م ١ : ١٣٨) وقد شبّه الملك داود في الزبور (١٢٤ : ١) المتّكلين على الرب « بجبل صهيون الذي المتزعزع الثابت الى الابد »

ومما ضربوا فيهِ الامثال من الجمادات بُروق السهم ومضاء السيف وحدّةُ الموسى وعدل الميزان وسحابة الصيف وحلاوة العسل وشهوة الخمر وحقارة الارض فقالوا : « أمرق من السَّهم » (م ٢ : ٢٣٣) وامضى من السيف (م ٢ : ٢٣٦) وأحدُّ من مُوسى (م ١ : ٢١٢) واعدل من ميزان وأخلف من سحابة صيف وأحلى من العسل (م ١ : ٢٠١) واشهى من الخمر (م ١ : ٣٤٢) واحقر من التراب (م ١ : ٢٠٢) . وكلّ ذلك قد شُبّهت بهِ الكتب المقدّسة فقال اشعيا (٤٩ : ٢) « جعل (الربّ) فمي كسيف ماضٍ . . وجعلني سهماً مختاراً وفي جعبتهِ ستبرني » وقال برنس الرسول

في رسالته الى العبرانيين (٤ : ١٢) : « انَّ كلمة الله هو حيّ عامل أمضى من كلّ سيف ذي حدَّين » وقال داود النبيّ (مز ٤٤ : ٦) : « نبالك مسنونة . هي في قلوب اعدائك » وقال ايضاً (مز ٥٢ : ٤) في الرجل الظالم : « لسانك يجترع الظلم عاملاً بالغش كالموسى المسنونة » وقال موسى في عدل الميزان (اخبار ١٩ : ٣٥ — ٣٦) : « لا تجوروا في الوزن والكيل بل موازين عادلة وعيارات عادلة تكون لكم » وقد شبَّه القديس يهوذا في رسالته (١ : ١٢) المنافقين بالسحابة الخالية فقال : « هؤلاء سُحب بلا ماء تحملها الرياح » . اما حلاوة العسل فتكرَّر ذكرها في الكتاب المقدَّس قال ابن سيراخ عن لسان الحكمة (٢٤ : ٢٧) : « انَّ روحي احلى من العسل وميراثي ألذّ من شَهد العسل » وقال صاحب الزامير (١٨ : ١١) : « خشية الربّ اشهى من الذهب والابريز الكثير واحلى من العسل وقَطر الشهاد » . وقال في سفر نشيد الانشيد في شهوة الخمر (١ : ٣) : « تفرح ذاكرين حبّك الذي هو اطيب من الخمر » . وقال في الزامير (١١٢ : ٧) في حقارة التراب : « انَّ الربّ يُنهض المسكين عن التراب ويقيم البائس من المزبلة ليجلسه مع عظماء شعبه »

وكما سبقت الكتب المقدَّسة العربَ في امثالهم المنقولة عن الجماد كذلك تقدَّمتهم في استعارة الامثال عن الحيوان وميزاته . فمن ذلك ضربهم المثل بشجاعة الاسد فقالوا : « اجرأ من قَسْورة ومن ذي لَبَد » (م ١ : ١٦٤) واشجع من أُسامة واشدّ من أَسَد (م ١ : ٣١٣) . وقال قيلهم بقرون عديدة صاحب سفر القضاة (١٤ : ١٨) : « اي شيء احلى من العسل واي شيء اشدّ من الأسد » . وقال في سفر الامثال (٢٨ : ١) : « الصدّيقون كشبل يطمئنّون » . وقال يعقوب في نبوّته على يهوذا (تك ٤٩ : ٩) : « يهوذا شبلُ اسد . . . جثمَ وربض كأسد وكلبؤة فمن ذا يقيمه »

وضربوا المثل في ظلم الذئب وعداوته وفي خبث الثعلب فقالوا : « أظلم من ذئب » (م ١ : ٣١٢) وأعدى من ذئب (م ١ : ٤٣٠) وأسلط من سِلَّمة وهي الذئبة (م ١ : ٣١١) وأروغ من ثُعالة . قال طرفة : « كأنهم اروغ من ثَعلَب » (م ١ : ٢٧٩) . وتقدَّمهم الكتاب الكريم فقال يعقوب (تك ٤٩ : ٢٧) : « بنيامين ذئبٌ يفترس » وقال السيّد المسيح لتلاميذه (لو ١٠ : ٣) : « ها انا أُرسلكم مثل خراف بين ذئاب » وقال ايضاً (متى ٧ : ١٥) : « احذروا من الانبياء الكذبة الذين

يأتونكم بلباس الحملان وهم في الباطن ذئاب خاطفة » وقد شبَّه لذكره المجد هيرودوس بالثعلب لخبثه (لو ١٣ : ٣٢). وقالوا على خلاف ذلك: « اذلُّ من النَّقد » اي الغنم. وقال اشعيا يصف وداعة المسيح بازاء اعدائه (٥٣ : ٧): « كشاة يساق الى الذبح وكحمل صامت امام الذين يجزُّونهُ »

وقد ضرب العرب الامثال في الفرس وسرعته وشدَّته وكرم طباعه فقالوا: « أجود من الجواد البُرّ » (م ١ : ١٦٧) وأسرع من فريق الخيل (م ١ : ٣٠٧) وأشأى من فرس واشدّ من فرس (م ١ : ٣٤١). وقد وصف الكتاب الكريم الفرس بكل هذه الصفات في آيات شتى ولا سيما في وصف سفر أيوب (٣٩ : ١٩ — ٢٥): « أأنت الذي يؤتي الفرس قوَّة ويقلّد عنقهُ رعدًا . . . »

وكذلك ضربوا الامثال في الكلب وفي الوس وفي السة فقالوا: « آلف من كلب (م ١ : ٧٥) وأطوع من كلب (م ١ : ٣٨٧) وأحرص من كلب على جيفة (م ١ : ٢٠١) وقالوا: « آكل من الوس (م ١ : ٧٤) ووصفوا السة بالحرص فقالوا: أجمع من السة (م ١ : ١٦٦) وأكسب من سة وذرَّة (م ٢ : ٩٨) واحرص من سة (م ١ : ٢٠٢). وفي الكتب المنزلة اوصاف مثلها جاء في سفر طوبيا (٦ و ١١) وصف ألفة الكلب. وقال اشعيا يصف رقباء اسرائيل وطمعهم (٥٦ : ١١): « كلاب نهمة النفوس لا تعرف الشبع ». وقال في سفر الامثال (٢٥ : ٢٠) عن الوس والعث: « كالعث في الثوب والوس في الخشب هكذا الكآبة في قلب الرجل ». وقال الرب لتلاميذه (متى ٦ : ١٩) : « لا تكنزوا لكم كنوزًا على الارض حيث يفسد الوس والآكلة وينقب السارقون فيسرقون » واما السة وحرصها على جمع الطعام فقد المع اليها سفر الامثال بقوله للكسلان (٦ : ٦) : « اذهب الى السة ايها الكسلان انظر طرقها وكن حكيمًا »

ومن امثالهم في الطيور ما قالوهُ في منعة العقاب وسرعة طيرانه وحدَّة بصره وفي عمر النسر وفي ألفة الحمام ونهم الجراد: « اعزّ من عقاب الجوّ » (م ١ : ٤٣٧) وأبصر من عقاب مَلاع (م ١ : ١٠٠) وأعمر من نسر (م ١ : ٤٣٤) وآلف من حمام (م ١ : ٧٥) واجرد من الجراد (م ١ : ١٦٧). وكذلك ورد في الكتب المنزلة عن منعة النسر قول ايوب (٣٩ : ٢٧) : « أبأمرك يحلّق النسر ويجعل وكره

في الملاء مسكنهُ الصخر وفيهِ مبيتهُ وعلى انف الصخر معقلهُ من هناك يبحث عن قوتهِ وعيناهُ تنظران من بعيد » وقال داود في رثائهِ لشاول ولوناتان (٢ ملوك ١ : ٢٣) : « أسرع من النسور واشدّ من الاسود » . وقال السيد المسيح ممثلاً بوداعة الحمام (متى ١٠ : ١٦) : « كونوا ودعاء كالحمام » . ثمَّ في تشبيهِ الاشتراع (٢٨ : ٣٩) يتهدَّد الرب شعبهُ « بالجراد القارض »

وقد قالوا في الحيَّة والافعى : « اظلم من حيَّة واظلم من أفعى » (م ١ : ٣٩١) واعدى من الحيَّة (م ١ : ٢٩١) . ومثل هذا في سفر ايوب يصف المنافق (٢٠ : ١٦) : « يرضع سُمَّ الأصلال فتقتلهُ لسان الأفعى » وفي الكتب المقدَّسة آيات كثيرة تشير الى خبث الحيَّة وسمها القاتل . وفي الانجيل الكريم (متى ١٠ : ١٦) : « كونوا حكماء كالحيَّات » قال ذلك لأنَّ الحيَّة تحرص على رأسها لئلَّا تصاب بأذى فتصونهُ دون جسمها . ولعلَّ العرب ارادوا ايضاً ذلك بقولهم « أعدى من الحيَّة » يريدون العَدْو اي السرعة لتسرّعها الى جحرها لتنجو من العدو . هكذا شرحها الدميري في حياة الحيوان (١ : ٣٢٠) بخلاف الميداني الذي اشتقَّها من العداوة والظلم . وقد روى ابن قتيبة هذا المثل في عيون الاخبار (ed. Brockelmann, p. 439) على صورة اخرى فقال : « الحلم من الحيَّة » ثمَّ روى (ص ٤٦٠) كلام الانجيل هكذا : « انَّ المسيح (عم) قال للحواريين : كونوا حكماء كالحيَّات وبُلهاً كالحمام »

*

٢ ومن امثال العرب الدالَّة على اختلاطهم باهل الكتاب وعلى الاخصّ بالنصارى ما رووهُ منسوباً الى الانبياء او الى مشاهير رجال العهد القديم والجديد وقد جاء اشياء كثيرة من ذلك في كتاب الامثال للميداني (م) وقد صنَّف ابو منصور الثعالبي كتاباً جليلاً في هذا المعنى دعاهُ « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » في مكتبتنا الشرقيَّة منهُ نسخة حسنة وقد طُبع في مصر طبعاً سقيماً سنة ١٣٢٦ نشير اليهِ بحرفي « مض » ونتَّبع زمن التاريخ مباشرةً بآدم

(آدم) عرفوهُ بابي البشر وضربوا بهِ المثل بالشهرة (مض ٢٩) وبالقِدَم (اطلب الصفحة ٢٨٣) = (أنوش) هو ابن شيث ويدعى احنوخ ينسب اليهِ العرب الآثار القديمة والخطّ فقالوا : « انَّما خَدَشَ الخدوشَ أنوشُ » م ١ : ١٥) » =

(نوح) ذكروا سفينة نوح وغراب نوح وغُمر نوح (م ض ٢٩ — ٣١ اطلب ص ٢٨٥) = (ابراهيم الخليل) ذكروا (م ض ٣١ — ٣٤) «مقام ابراهيم» فضربوا به المثل لكل مكان شريف. وثار ابراهيم زعموا انهُ نجا منها باذن الله. وصُحُف ابراهيم لحكمٍ قالوا ان الله انزلها عليه. وضيف ابراهيم وتحنة ابراهيم اشارة الى الله تعالى الذي تراءى لابراهيم على صورة ثلثة رجال (سفر التكوين ف ١٨) فاضافهم وقدَّم لهم خبزاً ولحماً. (اطلب القرآن سورة الحجر ٤٩): «ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً . . . .» = (اسماعيل) نسبوهُ الى الصدق فقالوا: «صدق اسماعيل» (م ض ٣٣ — ٣٤ وسورة مريم) = (يعقوب) قالوا «احزان يعقوب» مشيرين الى حزنهِ على يوسف اذ اخبروهُ بنوهُ بموته (م ض ٤٤) = (يوسف الصدّيق) ضربوا المثل (م ض ٣٤ — ٣٨) برؤيا يوسف اشارةً الى الرؤيا الصادقة. وبذئب يوسف لتُهمة كاذبة. وبقميص يوسف الخضَّب بالدم. وبحُسن يوسف. وسني يوسف السبع المخصبة ثمَّ السبع المجدبة. (راجع سفر التكوين ف ٣٧ وما يليهِ ثمَّ في القرآن سورة يوسف) = (موسى) ممَّا يذكرون لهُ (م ض ٣٨) عصاة موسى التي فلق بها بحر القلزم. وثار موسى التي تجلَّى لهُ فيها الله. ويد موسى التي لاحت عليها آثار البرص. وصُحُف موسى المنزلة عليهِ ومناجاتهُ لهُ (راجع سفر الخروج وبعض سور القرآن كالبقرة والاعراف) = (فرعون) نسبوا اليهِ الصَّلف والنخوة فقالوا: «نخوة فرعون» (م ض ٦٣) = (قارون) هو قورح احد الذين خُسفت بهم الارض لمعارضتهم موسى. وقد زعموا انهُ كان مثريًا فقالوا «كنوز قارون» (م ض ٦٤ والقرآن سورة القصص ٧٦) = (بنو اسرائيل) ضربوا بهم المثل في التيه فقالوا (م ١ : ١٣١): «أتيه من قوم موسى عم» = (أيوب) ضربوا بهِ المثل في الصبر «صبر ايوب» (م ض ٤١) = (داود) ذكر العرب في امثالهم مزامير داود ونغمته في تلاوتها وزعموا انهُ برع في نسج الدروع (م ض ٤٣ — ٤٤ واطلب فصولنا السابقة ص ٣٤٩) = (سليمان) ضربوا بهِ المثل في عزَّة الملك واتساعهِ فقالوا: «مُلك سليمان» ونسبوا الى خاتمهِ المعجزات فقالوا: «خاتم سُليمان» كما قالوا: «جنّ سليمان وسَير سليمان» لزعمهم بانَّ الله سخَّر لخدمته الجنّ والشياطين وانهُ كان يعلم منطق الطير والحشرات (راجع سورة النمل في القرآن) ويسير على بساط الريح (سورة سبأ في القرآن.

اطلب مض ٤٤—٤٦ وفصولنا السابقة ص ٣٥٠) = (الخُضْر) قيل انهُ الياس النبي فقالوا : « فلان خليفةُ الخضر » اي جوّاب في الآفاق (مض ٤٢) = (يونس) هو النبي يونان ضربوا المثل في الحوت الذي ابتلعهُ فقالوا : « أنهم من حوت يونس » (مض ٤٣) = (عُزَيْر) هو عَزْرا صاحب السفرَيْن الواردَيْن باسمهِ في الكتاب المقدَّس . ضربوا بحماره المثل فقالوا : « حمار عُزَيْر » لأنَّ الله على زعمهم أمدَّهُ بهِ في نكبتهِ (مض ٤٦) = (هامان) وزير الملك احشورش نسبوا اليهِ صَرْحاً فقالوا « صَرْح هامان » زعموا انهُ بناه فرعون (راجع القرآن سورة القصص ومض ٦٣) = (عيسى) اي السيّد المسيح ضربوا المثل في نطقهِ بالمهد (مض ٤٠) ثم في طبّهِ فقالوا : « طبّ عيسى » لكثرة معجزاتهِ في احياء الموتى وشفاء المرضى (مض ٤٧) وفي حمارهِ الذي ركبهُ يوم دخولهِ اورشليم في احد الثمانين (مض ٤٦) ونسبوهُ الى الله فقالوا « روح الله » و « كلمة الله » (مض ١٥) = (مريم العذراء) ضربوا المثل بعفَّتها فقالوا « عفَّة مريم » (مض ٤٤ وسورة آل عمران) وقالوا « تُحفة مريم » كما قالوا تحفة ابراهيم يريدون بها الرُّطب اي التمر (مض ٣٣) وكذلك قالوا « نخلة مريم » لأنهم زعموا انها كانت تنحني أمامها لتأكل من ثمرها (مض ٢٤٤) = (يحيى) وهو يوحنّا المعمدان فقالوا « دم يحيى ابن زكريّا » (مض ٤٧) لقتلهِ ظلماً على يد هيرودوس = (الحواريُّون) وهم رسل السيّد المسيح ضربوا المثل في صفاء قلوبهم (قصص الانبياء للثعلبي ص ٣٤٣) = ومن امثالهم النصرانيَّة (كعبة نجران) وهي كنيسة كان يحجّ اليها اهل اليمن لحسنها (مض ٤١٢) و (قسّ نجران) وهو قسّ بن ساعدة المضروب بهِ المثل في الخطابة (مض ١٨٥) و (أبدال اللُّكام) و (أبدال لبنان) وهم قوم من النسّاك الصالحين زهدوا في الدنيا وعبدوا الله في جبل اللُّكام وجبل لبنان (مض ١٨٦ — ١٨٧) و (نوم اصحاب الكهف) وهم شهداء النصرانيَّة في افسس قيل انهم أووا الى مغارة لينجوا من المغتصبين فباتوا فيها ثانين سنين عديدة (مض ٦٥ وسورة الكهف في القرآن) و (كنيسة الرها) قالوا انها من عجائب الدنيا (مض ٤١٦) و (دير بِرْقل) كانوا يعالجون فيهِ المجانين (مض ٤١٩) (لهُ بقيَّة)